

## اثر الفرد في الحياة الاجتماعية

للأستاذ إبراهيم القطري

استعرضنا تطور الحياة الاجتماعية وأصل الظواهر البارزة فيها وأتينا على المفارقات الشاسعة بين طبقات الشعب وما تتعرض له الأغلبية الساحقة من السكان ودم جمهور الزراع والمشتغلون بالصناعة والتجارة المتعلمون منهم أو العمال سواء من الناحية المادية أو من الناحية العلمية وسواء إذا ما زاولوا أعمالهم أو إذا ما اضطرتهم ظروف الحياة إلى البطالة . وقد خلص لنا أن هناك وسائل كثيرة تتعدد بتعدد نواحي الحياة الاجتماعية تساعد على تحسينها ورفع شأنها .

وفي مقدمة هذه الوسائل ما تبذله الحكومة سواء بالعمل على استحداث نظم جديدة أو وضع تشريعات اجتماعية .

ولكن هناك وسائل فمالة أبعد أثرا وأهم نفعا وهي المحاولات التي يقوم بها أفراد الشعب في سبيل الإصلاح الاجتماعي ، لأن الحياة الاجتماعية للأمة هي في تدرجها إلى الحياة الفردية للفرد ثم الحياة العائلية للأسرة ثم الحياة الطائفية لأي جماعة من الجماعات أو هيئة من الهيئات وأخيرا تتألف من كل هذا الحياة الاجتماعية العامة لجميع أفراد الشعب .

فاذا جاز لنا أن نصور جهود الدولة وجهود الأفراد إزاء الحياة الاجتماعية فلتصور أن مجموع هذه الجهود يكون شكلا هرميا مثلث الأضلاع فاعدته الأعمال التي يقوم بها الأفراد ويتقدم بها المواطنون جميعا وفي نهاية الأعمال التي تؤديها الدولة إذ أنها تتوج سائر الجهود .

ولا نغني في هذا المقام ما يبذله الأفراد وينظرون وراء ذلك إلى منفعة ذاتية خاصة ويكفيهم إرضاء أنفسهم وإشباع رغباتهم ولا يمحفون بأثر جهودهم على غيرهم أو بحكم مواطنيتهم عليها ، فأمثال هذه الجهود ذات الطابع الأناني لا يمكن بحال أن تؤدي إلى حياة اجتماعية صالحة وطبعا يتطلب هذا أن يتأثر في نفوس الأفراد اعتقاد جازم بأن لكل منهم أثرا بالغا في حياة الجماعة وأن ما يقوم به من الأعمال يعود على نفسه أولا ولكن يعود على غيره أخيرا وأنها هي المقياس الحقيقي له بين مواطنيه .

ويستوى في هذا الأغنياء والفقراء والعمال وأصحاب الأعمال والمزارعون وأصحاب الأملاك على اختلاف فقط في القدر الذي يستطيع كل منهم بذله تبعا لقدرته واستعداده وظروفه وسيترتب على هذا الإدراك ألا نجد بين الجماعة هؤلاء الأفراد المتواكبن الذين يستهينون بأنفسهم ويشعرون بضآلة شأنهم فيعيشون في هذه الحياة الدنيا ويبارحونها وكأنهم لم يروها كذلك سيتوارى فريق من الأفراد يحور له ثراؤه أو جاهه أنه في عزلة من مواطنيه ، همه من حياته مطامع يطمع إليها وما رب يحصل عليها . تتطلب الحياة الاجتماعية إذن أن يشعر كل فرد بأن عاياه للمجتمع دينا يجب أن يؤديه وحسبا يجب أن يقدمه .

فقد حبى الله عباده بنعم متعددة وخص بعضهم بالمال وبعضهم بالعلم وبعضهم بالجاه  
وأثر بعضهم على بعض لهذه الهبات ؛ فما على كل ذى نعمة إلا أن يزكى عنها ويتزل عن جزء  
منها إذ أن للمال زكاة وللجاه زكاة .

لقد استتبع تطور الحياة الاجتماعية وجود طوائف من الناس قست عليهم ظروف الحياة  
وتركتهم بين طفل مشرد أو عاجز عن العمل أو مريض لا يعرف طريقه إلى العلاج . ولقد  
قامت الحكومة وقادة الرأي بأعداد النظم والمنشآت التي تكفل إيواء المشردين وإعانة  
العاجزين وعلاج المرضى فأسست الجمعيات الخيرية والملاجئ والمستوصفات وصناديق  
الإعانة ومكاتب المساعدات ، ولكن ما الذى يضمن لهذه المنشآت الازدهار والانتشار  
وما الذى يساعدها على أن تؤدي مهمتها على أعم وجه وأنفعه .

لا شك أن المال هو الدعامة لكل ما تقدم ولا سيما وقد أصبحت أعمال البر ضرورة  
اجتماعية يتعدى أثرها إلى سائر أفراد المجتمع إذ أنه قد انقضى العهد الذى كان يقصد فيه  
بالإحسان المباهاة والمفاخرة ؛ وهذه لا تكفى أن يغذيها أريحية فردية عارضة أو نفحة من  
جواد لا يعود إليها مرة أخرى إذ أن الجهات المنظمة من أعمال البر الاجتماعى لا تقوم إلا  
على إحسان منظم يشترك فيه أكثر عدد ممكن من الأفراد كل على قدر طاقته يساهمون  
في المؤسسات المتعددة ويتعاونون في تغذية صناديق الإعانة ومكاتب المساعدات الاجتماعية  
ويتسابقون إلى الأسواق والمحافل الخيرية فيصبح حب الخير عادة متأصلة في نفوسهم وابتداء  
المعروف والإحسان عملاً يقومون به لوجه الله ولصالح المجتمع .

هذا أثر الفرد على المجتمع إذا كان لديه فضلة من المال ، أما أثره على الحياة الاجتماعية  
إذا كان على شيء من العلم فلا يقل شأنًا عن أثره السابق وأن للعلم زكاة كزكاة المال تماماً  
إذ أن من واجب المتعلم أن يكون نافعا بعلمه وأن يرد بعضه إلى البيئة التي نشأ فيها .

وتجب زكاة العلم على المتعلمين جميعاً سواء في ذلك العامل المتعلم أو طالب المعاهد الدينية  
أو طالب المعاهد العليا أو حملة الشهادات المدرسية على اختلاف درجاتها وأنواعها  
كل هؤلاء عليهم أن يشعروا أن للمجتمع حقاً فيما يعلمون وأنه ينتظر منهم أن يؤدوا إليه هذا  
الحق على أى صورة من الصور التي يستلزمها النشاط الاجتماعى ومن حزن الحظ أن الوسائل  
التي تساعد على تحسين الحياة الاجتماعية وتحتاج إلى جهود الأفراد المتعلمين لا تقع تحت حصر  
فقد يكون من الممكن أن تحصر الحكومة جهودها التي تراوحتها لتحسين الحياة الاجتماعية  
لأن هذه الجهود محدودة بميزانية معينة وبعدد معين من موظفى الدولة ، أما نواحي النشاط  
الاجتماعى العامة فلا تحد إذ أنها تنسج للأفراد جميعاً مادامت بين جوارحهم نفوس تشعر بالواجب  
عليها نحو المجتمع ، من الميسور أن توضع نظم وأن تسن قوانين لإنشاء النقابات بين العمال أو  
لإيجاد نظام التعاون أو لتشجيع افتتاح معاهد لمحو الأمية أو للدراسات الاجتماعية ولكن ليس  
من الميسور أن تتدخل هذه النظم في نفوس الشعب وأن تعمرب مبادئها إلى عقائد أفراد

إلا إذا وطن المتعلمون من الأفراد أنفسهم على الاستفادة من هذه الجهود الرسمية والتوسع في استخدامها والقياس عليها بل واستحداث أكثر منها، على أن يقوم كل فرد بما يتيسر له في هذا الواجب القوي حسبة لوجه الله ولوجه الوطن شأنه في ذلك شأن المدين الذي قام بوفاء دين عليه لدائنيه فلا يرجو من هذا الوفاء جزاء ولا شكورا إذا أن الخدمات الاجتماعية بطبيعتها وبالقياس إلى ما حدث في الدول التي انتشرت فيها لا تنهض إلا على أكتاف جنود مجاهدين يؤثرون العمل الصامت ولا يتطلبون من وراء جهودهم الإنجاح رسالتهم، لذلك فقد أطلق عليهم جيش الخلاص لأنهم يعملون على تخليص مواطنيهم من البؤس إلى السعادة ومن الجهل إلى العلم ومن التفكك والانحلال إلى الهدى .

ولا يتطلب هذا الجيش إلا سلاحا واحدا هو الإيمان الصادق بخدمة المجتمع والتعاون في الوصول إلى هذا الغرض . فلو اتخذ المتعلمون في متصر هذا السلاح على اختلاف بيئاتهم وأنواعهم عمالا وطلبة وحائزين على مؤهلات دينية أو مدنية ، وهم لا يتلون عن مليوني فرد، وجرّدوا أنفسهم لمحاربة الأمية ومحاربة البدع والعادات السيئة وللدعاية للتعاون والجمعيات التعاونية النافذة وللشروعات الصالحة واتخذوا من متدياتهم نكبات يعدون فيها عدتهم ومن محافلهم ومهرجاناتهم مواقع حاسمة يقضون فيها على ما في هذا المجتمع من شرور وآفام لئلا الحياة الاجتماعية على سواعدهم في سنوات ما لم تنله على هذا السير الوئيد البطيء في أجيال .

أما صاحب الجاه من الأفراد فز كانه أن يسبغ شيئا من جاهه العريض على نواحي النشاط الاجتماعي الذي يهيئه استعدادا أو هوايته لها وألا يقعد به جاهه عن الدخول في يادين الخدمة الاجتماعية العامة وألا يكون حسبه من جاهه ما يستمتع به في عمله الرسمي أو ما يشعر به في المحافل والجمعيات من الصدارة والتكريم . وما أخرج المؤسسات الاجتماعية والمشروعات القومية إلى مكانة ذوى الجاه حتى يكسبها ثقة تتحمل الناس على الاقبال عليها وعلى الأخذ بها .

بذلك يصون ذو الجاه جاههم فكا يضاعف الله للمتصدقين أموالهم فيرد إليهم الحسنة عشرة أمثالها كذلك ذو الجاه إذا ما منحوا شيئا من جاههم للخدمة الاجتماعية العامة يمكن الله لذكراهم وأبقى اسمهم وجعل خير أمتهم على أيديهم .

وللفرد صاحب الجاه أثر آخر على الحياة الاجتماعية بجانب الأثر الذي يحدثه من مساهمته في النشاط الاجتماعي وذلك إذا ما كان يتخذ من نفسه مثلا صالحا لمواطنيه ينأى بنفسه عن مواطن الزلل ويقربها إلى مواطن الكمال بطابق بين أقواله وأفعاله ولا يقوم بدعوة خيرة إلا ويكون هو البادئ بها فيصبح له أجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

تلك هي آثار الفرد في الحياة الاجتماعية إذا ساهم فيها بماله أو بعلومه أو بجاهه قد أجمعناها وربما عدنا إلى تفصيل ما أجمعناه